

البحث الأدبي ما جدواه ؟ وما الذي ينبغي له؟

د.عليي فضيلة

أستاذة محاضرة جامعة الجليلي الابس

-سيدي بلعباس-

تقوم الحضارة على ركيزتين أساسيتين هما العلم و العمل، إذ يحتاج في كليهما إلى جميع الفئات البشرية ، على تباين أدوارها ، ولما كان العلم غايته رفاه الإنسان برزت أهمية البحث العلمي في تنوير عقله واحترام إنسانيته، و أي إهمال لهذا البحث هو إقرار بالمساواة بين الإنسان الكائن المشرف بنعمة العقل وبين غيره من الكائنات .

وإن كان الناس في هذه الأزمنة يقرّون ببعض الفضل للبحث العلمي في المجالات التطبيقية و العلمية البحتة لما لها من أثر في تسهيل حياتهم وجعلها أفضل ، فإنّ كثيرا منهم يرى بعدم جدوى البحث الأدبي و هو أمر نجده عظيما حيث يمكن أن يغتفر إذا كان صادرا من العامة الذين يظل همهم الأكبر تحصيل العيش ،غير أنه غير مقبول جملة و تفصيلا إن كان صادرا من أهل العلم أنفسهم ، " فليس ما يحول دون اجتماعية الإنسان وبالتالي دون اجتماعية الشعوب و تعايشها تعايشا سلميا و تفاعلها تفاعلا إنسانيا أكثر من الحيلولة دون تنوير العقل البشري فالإنسان يتميز عن الحيوان بأنّه ذو عقل يعي و يدرك و يفهم و يحصّص ، و الطبيعة لا تحرم إنسانا من العقل ، غير أنّ العقل البشري يحتاج إلى تغذية و يحتاج إلى صقل و تهذيب ،فإذا ما حرم من ذلك يفقد فعاليته في جعل المجتمع مجتمعا خيرا و خلّاقا ، يبي و لا يهدم ... و العقل البشري لا يفسح له مجال الخلق

والإبداع والعمل على إسعاد البشرية إلا ضمن حضارة اجتماعية تقدمية ، لا يحرم فيها أيما إنسان من الوسائل التي تمكنه من الانطلاق العقلي والإدراكي " ¹ .

فهل نحن اليوم نمثل هذه الحضارة التقدمية التي كافح من أجلها من سبقونا وساقوا لها جهودهم في التطير والتخطيط والتقيح ، حضارة تقدس البحث والتأمل وتحترم الإنسانية وتجعل أصحابها في مرتبة القيادة لما لهم من سعة اطلاع ودقة نظر، حين ينكر بعضنا الفائدة العظيمة للبحث الأدبي؟

إنّ الحديث عن جدوى هذا النوع من البحوث ينبغي أن ينطلق من الأهداف المنوطة به والتي لا يمكن حصرها جميعاً وإنما يمكن الإشارة إلى بعضها ، ولعل أهمها إذاعة المعرفة لما تحمله هذه الإذاعة من بعد إنساني، إذ أنّ ما يذاع في البحث الأدبي هو عصارة التجارب السابقة ، أي ما حفظه التراث لنا من معارف وما استجدّ على مرّ الأزمنة مجموعاً ومخصّصاً وفق منهج علمي مناسب لروح العصر الذي يجري فيه هذا البحث ، فالبحث الأدبي في أبسط تعريفاته هو طلب الحقيقة الأدبية فيما حفظه لنا التراث من مصادر وإذاعتها " ² .

ولا يخفى على أحد الفعل العكسي الذي تحدّثه إذاعة المعارف الأدبية ، إذ تعزز مكانة الأدب وتقويها وتبرز رسالته الإنسانية وتسمو به إلى المراتب التي يمكنه بها بناء مجتمع متحضر ومتفهم ومبدع ، فإذا كانت العلوم الأخرى تسعى إلى الكمال المادي في

حياة الإنسان فالأدب يسعى إلى كمال الفكر وصفائه ، بل إن الأول لا يتحقق إلا بوجود الثاني ، وما تعيشه اليوم شعوبنا العربية من تراجع علمي إلا نتيجة طبيعية لاستبعاد البحث الأدبي الذي يفترض به أن يكون على رأس سائر البحوث.

فالبحث المستمر عن الحقائق الأدبية ، بمحاولة إيجاد حلول للمشكلات اللغوية والأدبية في لغتنا العربية من شأنه أن يحقق الكفاية في مكتباتنا ويرسخ عناصر هويتنا الأدبية ، ومن ذلك ما ينتج عن البحوث التي تولي عناية بما تركه أسلافنا من مؤلفات دراسة وتحقيقا وتعليقا ومقارنة لما لها من أثر في التحفيز على قراءة التراث اللغوي والأدبي والحذو حذوه في كثرة التأليف والتصنيف وتنوعه وغناه ، وليس في هذا دعوة إلى العيش في عصور هؤلاء وإنما هي دعوة إلى قراءة آثارهم قراءات متجددة ، الأمر الذي من شأنه أن يبرز قيمها الفنية و أن تكون نقطة انطلاق لبحوث لا تنضب ، فكل بحث أدبي هو فاتحة لعدد لا متناه من البحوث الأخرى.

كذلك لا نريد بانحيازنا لأدبنا أن ننغلق به على أنفسنا وأن نفصل عن العالم الذي نتشارك معه إنسانيتنا ، بل على العكس إطلاقا إذ أن من أهم الأسس في البحث الأدبي أن يسمح بالتلاقح بين الثقافات واللغات و الآداب المختلفة و إنما هي رغبة في النهوض بهذه القراءات بعقول عربية خالصة ، من واجبها توجيه طلبة العلم حتى لا تضيع منهم الحقيقة من خلال تجنيبهم الوقوع في

الأخطاء السابقة ، مع الحرص في أثناء ذلك على توخي الحكمة والدقة العلمية والابتعاد قدر الإمكان عن الذاتية و الترجسية.

إنّ البحث الأدبي لا ينبغي له أن يختص بأدب دون غيره أو بفن دون آخر ، بل وجب أن تكون سمة التنوع أولى مقاصده ، فيفتح على آثار الأمم المختلفة حتى لا ينحصر في مواضيع معينة أو يتّبع اتجاهات و مذاهب بعينها اتّباعاً مطلقاً ، فينتج عن ذلك دراسات متشابهة و مكررة و إهمال لكثير من الآثار الأدبية تقدماً و شرحاً مما يحرم المتلقي من متعة قراءتها و التعامل معها ، فالأدب ليس كالرياضيات التي تعتمد على حقائق ثابتة إلى حد ما ، إذ يمثل ما كان و ما هو كائن الأمر الذي يجعله قابلاً للبحث المستمر .

هذا البحث تناط به أهداف وآفاق حذر كثير من الدارسين من الخلط بينها وبين أهداف الاختصاصات الأخرى إذ أنّ "الخلط بين رسالة العلوم و المنطق و الفلسفة و رسالة الفنون و الآداب له أثره وخطورته في هدم التخصص الذي قامت عليه الحضارة الراهنة وازدهرت به الحياة الإنسانية المعاصرة " ³.

ولأجل هذا وضعت الضوابط والشروط التي يصل الباحث بفضلها إلى مراتب الإتقان والقبول أجملها شوقي ضيف في قوله "لا بدّ من الاستقراء التام للنصوص والاستنباط البصير للخصائص الكلية إذ هما قوام البحث الأدبي وسناده وعماده وبدونهما لا يقوم ولا ينهض أيّ نهوض و لا بدّ أن تتوالى في البحث تفسيرات

صحيحة لحقائقه الجزئية والكلية التي تسري في شعر بعض الشعراء أو في عصر من العصور أو إقليم من الأقاليم تفسيرات تعمّه وتداخل في جميع جوانبه بحيث يعدّ بحثاً طريقاً من شأنه أن يفيد منه الباحثون وابدأ أن تتكوّن لدى الباحث الناشئ قدرة على التذوق الأدبي المعلن والتحليل الدقيق لشخصيات الأدباء وفنهم وخصائصهم المميزة مع دقة العرض واكتمال التمثل ومع الاحتياط في استخدام صيغ التعميم ، ومع استظهار صيغ الاحتمال ومع فصاحة العبارات وما ينبغي لها من حسن الأداء ."⁴

فهذا التوجيه من صاحبنا ومن كثيرين غيره يرجون كمال البحث الأدبي وخلوصه من الشوائب للدليل بين على أثره في توجيه الحياة الثقافية للفرد ، الأمر الذي يوجب على الباحث أن يتسلح بسلاح الاستقراء الدقيق وكثرة الاستنتاج ودقة التفسير أي " إتقان طريقة البحث ووسائله وأدواته من النقد والتحليل اللغوي والاسترشاد بالمناهج والدراسات السابقة و تطبيقاتها في الشرق والغرب لأن كل ما نهض به الغربيون القدماء والمحدثون وكذلك العرب في القديم والحديث إنما يراد بهما شيان دائما هما التوضيح والتقويم ، توضيح الأثر الأدبي توضيحاً تاماً يشمل كل خصائصه ومعانيه، وتقويمه أيضاً تقويماً شديداً بمعايير سليمة " ⁵، حيث يتمكن بذلك من إبراز مكانته مقارناً بغيره من الآثار وتصنيفه في المرتبة التي يستحقها.

ويبقى أن نشير إلى أن الذين انتقلوا من التخصصات العلمية إلى الأدب ومنهم كبار النقاد الغربيين ، وجدوا فيه حلاوة وفائدة لم يجدوها في الهندسة أو الطب وأكملوا مسيرتهم العلمية في البحث فيه دونما ندم أو ملل

أو سأم بل وحققوا فيه نجاحات لم يتوقعوها في دراساتهم الأصلية، بينما وجد فيه آخرون همًا كبيرًا لعظم مادته واتساعه وتشعبه وهول مسؤوليته ودخول العلمية إليه من باب المنهج .

الهوامش

- ¹ - جورج حنا "الحقيقة الحضارية" ، دار العلم للملايين بيروت ط 1 ، 1958 ص 8.
- ² - علي جواد طاهر " منهج البحث الأدبي " ، مطبعة العاني بغداد ، 1970 ، ص 20.
- ³ - بدوي طبانة " قضايا النقد الأدبي ، الوحدة، الالتزام، الوضوح و الغموض الإطار و المضمون ، دار المريخ للنشر القاهرة 1984 ، ص 38.
- ⁴ - شوقي ضيف " البحث الأدبي ، طبيعته ، مناهجه و أصوله و مصادره ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف القاهرة ، ط 1992 ، 7 ، ص 5.
- ⁵ - م س - بتصرف - ، ص 144-146.